الرباطاب

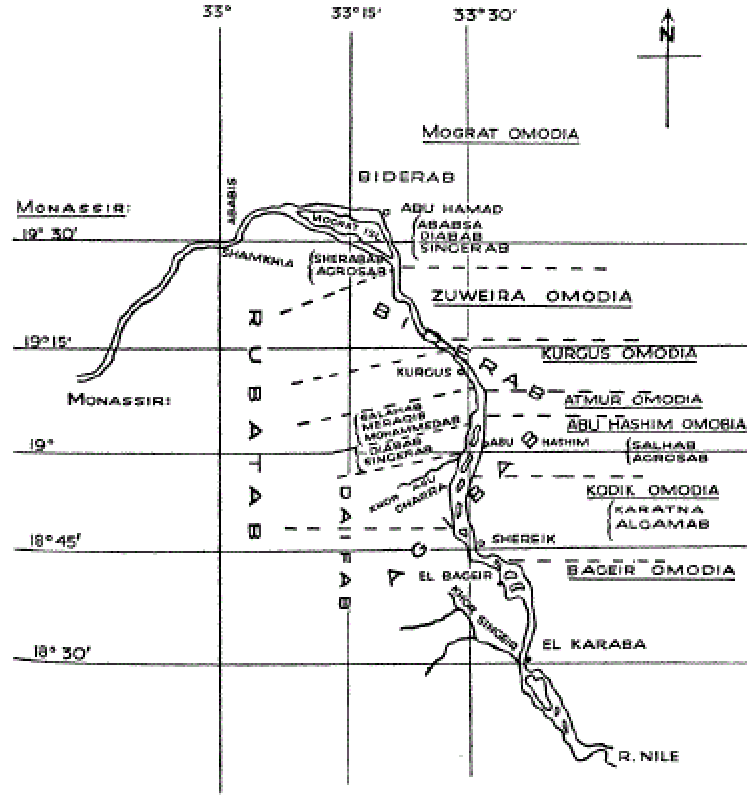
بقلم F. G. Lorimer

ترجمة الفضل خليفة الشيخ

تقطن قبيلة الرباطاب المنطقة التي تقع على جانبي نهر النيل من خور السنقير (خط عرض ´30 °18، خط طول ´41 °33)، إلى الشامخية (خط عرض ´30 °19، خط طول °33)، التى تقع في انحناءة النهر ناحية الغرب من أبي حمد إلى مروي، وهي مسافة حوالي مائة و ستة عشر ميلا .

منطقة الرباطاب، ومع إنها جرداء وتفتقر للخصوبة ، وتهب قليلا من الجاذبية ومصاعب شتى للزارع المحلي، إلا أن طبيعتها جذابة. على الضفة الغربية هناك فقط شريط ضيق من الأراضي الصالحة للزراعة لصيقة بالنيل، ولكن عند رؤيتها من النهر، أو من الضفة الأخرى فإنها تقدم مشهدا من الأخضر اللامع مكونا من الظلال المختلفة للعديد من أشجار النخيل، وأشجار السنط (التي يوجد منها هنا حوالي عشرة أنواع مختلفة)، والديس وحشائش نهرية أخرى، ومزروعات السواقي والجروف. وامتداد النهر كله مرصع بجزر خضراء، بعضها يحتوي على بقايا آثارية مهمة. إن منطقة الرباطاب كلها غنية بالآثار المروية وآثار الحقبة المسيحية الوسيطة والتي تم وصفها وتصنيفها من عدة جهات خبيرة.

في الداخل على الضفة الغربية ، تمضي الأرض صعودا في سهل منحدر بلطف مغطى بالحصى، يتفاوت عرضه من بضع مئات من الياردات إلى ميلين أو ثلاثة أو أكثر ليلتقي بامتداد طويل من سفوح الجبال يسير موازيا للنهر- امتداد من صخور بركانية داكنة منخفضة جدا في بعض الأماكن، وتصل إلى ارتفاعات هائلة في أماكن أخرى. الزراعة نادرة في الضفة الشرقية، والسمة الغالبة هي سلسلة من الكثبان الرملية شبه البيضاء المتدحرجة والتي تمتد من الصحراء إلى ضفة النهر وتتغول تدريجيا على شريط الجرف الذي يتم ابتلاعه ببطء.



منطقة الرباطاب: توزيع العموديات والفروع

الرباطاب كيان قبلي قريب الصلة بالشايقية والجعليين والميرفاب ومعهم جميعا لهم أصل مشترك.ولهم أيضا قرابة مع جيرانهم في الغرب، المناصير، وإن لم يكونوا مرتبطين معهم ارتباطا وثيقا. ويزعمون أنهم عباسيون أنقياء، ينحدرون مباشرة من العباس عم الرسول، وبحسبانهم من سلالة فرع بني العباس من قريش، قبيلة الرسول فإنهم يتجاهلون تماما أي إمكانية لعنصر نوبي بين صفوفهم. إنهم شديدوا الفخر بنسبهم، وكل قرية يمكن أن تبرز وثيقة قديمة واحدة على الأقل مبينة بالتفصيل تسلسلهم من العباس. بعض سلاسل النسب هذه تعود للوراء حتى نوح، وبعضها حتى آدم، وواحدة رأيتها تذهب إلى أبعد من ذلك- إلى مصدر كل اللحم! إنها تبدأ على النحو التالي:

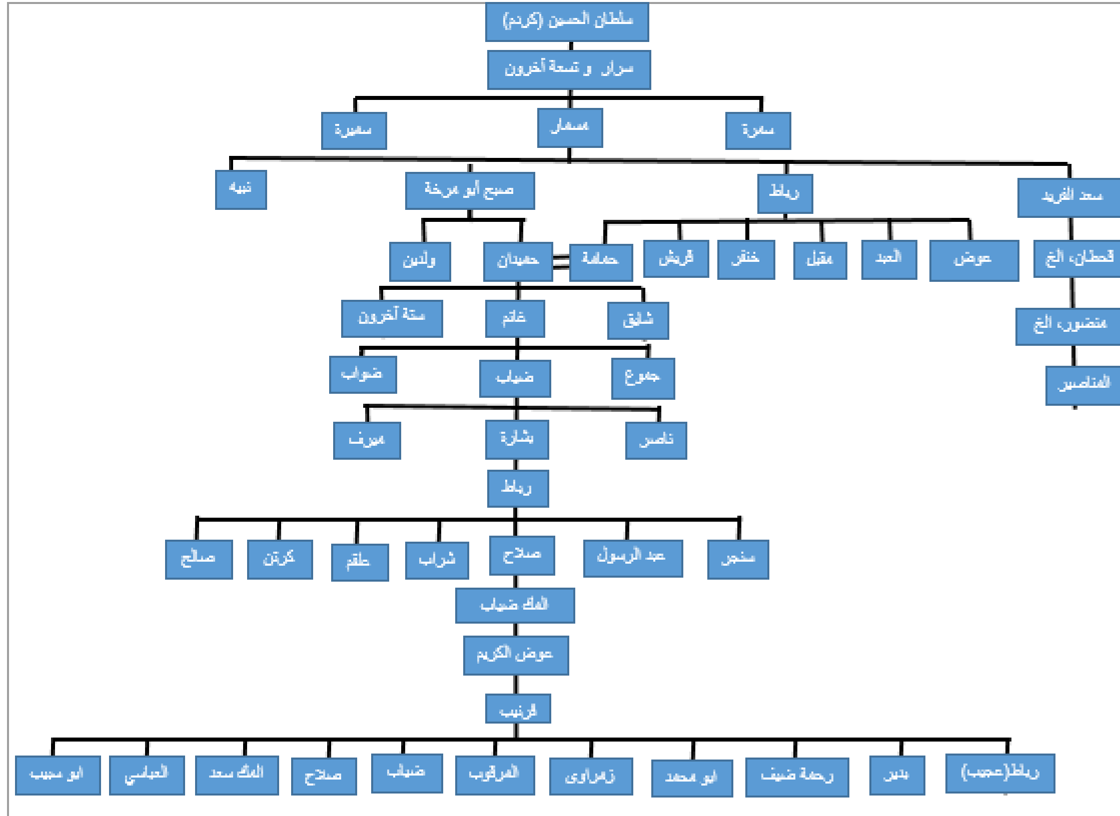
"ولد الله النار، النار ولدت الدخان، الدخان ولد الظلام، الظلام ولد النهر، النهر ولد الموجة، الموجة ولدت التراب، ومن التراب انبثق آدم أبو محمد".

إن الإدعاء بالانتماء للأسرة العباسية تتشارك فيه كل المجموعة الجعلية، ولكن هذا الامتياز لم يقر به ماكمايكل في كتابه " تاريخ العرب في السودان". بعض مؤرخي الرباطاب – وكلهم يزعمون أنهم مؤرخون – يعتقدون أن الصلة الوثيقة بينهم والشايقية والجعليين والميرفاب مصدرها حقيقة أن أربعة من أولاد بشارة هم شايق و جعل وميرف ورباط. وبعضهم يتمسكون بأن حمامة، والدة غانم، الجد الأعلى للجعليين أصحاب الاسم، هي ابنة رباط الكبير، مما يفسر العلاقة الوثيقة بين الرباطاب والجعليين. ومع ذلك يعتقد البعض الآخر أن شايق، جد الشايقية، هو الأخ الشقيق لغانم، الذي بالإضافة لأنه الجد الأعلى للجعليين، هو الجد لبشارة، الذي انحدر منه كلا الرباطاب والميرفاب.

أول الافادات أعلاه في اعتقادي غير صحيحة، وبناء على ما تمكنت شخصيا من جمعه من استفساراتي من الرباطاب والميرفاب، فإن الإفادتين الأخيرتين تبدوان صحيحتين. يبدو أن غانم، الذي هناك قبول عام بأنه الجد الأعلى للجعليين، هو فعلا ابن حمامة، ابنة رباط الأكبر، وكذلك أخو شايق، وبذلك فإن الرابطة بين الشايقية والجعليين والرباطاب يكون قد تم إرساؤها بشكل قاطع فيما يبدو.

إن كون الرباطاب يرتبطون بعلاقة وثيقة مع الميرفاب أمر لا يقبل الشك. وفي حقيقة الأمر فإنهم أكثر ارتباطا بهم وأحدث علاقة معهم من الجعليين أصحاب الاسم والشايقية. (أنا أتحدث هنا عن الجعليين أصحاب الاسم تمييزا لهم من المجموعة الجعلية التي تنتمي لها كل هذه القبائل المذكورة).

الجدول التالي هو نتيجة لربط كل أشجار نسب الرباطاب التي اطلعت عليها في أزمان مختلفة، وهو أيضا المادة الأساسية لكل القصص المختلفة حول أصل الرباطاب التي رويت لي. إنه يمثل رواية الرباطاب التي تجد لها سندا قويا عند كل الميرفاب الذين تبادلت معهم الرأي.



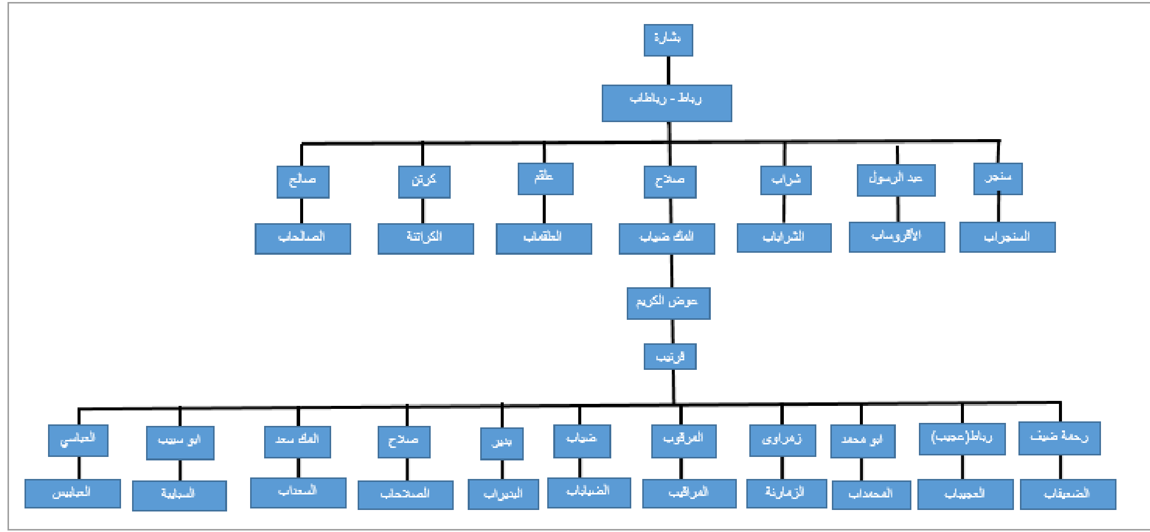
تتكون قبيلة الرباطاب من سبعة عشر فرعا، من أكبرها وأكثرها أهمية البديراب، والعجيياب، والسنجراب، والصالحاب، والضعيفاب، والضياباب، والعبابيس، والمحمداب. الفروع الصغيرة الأخرى هي الأقروساب، والشراباب، والعلقماب، والكراتنة، والزمارنة، والسعداب، والصلاحاب، والسبايبة، والمراقيب.

لا يزال هناك قسم آخر يزعمون أنهم رباطاب وهم العبابسة. هؤلاء يظهر أنهم أتوا إلى السودان في تاريخ أوخر نوعا ما من بقية الرباطاب، وحينئذ يبدو أنهم الحقوا أنفسهم بالقبيلة. إنهم يزعمون أنهم من نسل هارون الرشيد، خليفة بغداد، ولديهم رأي جيد لدرجة المبالغة عن أنفسهم، وهو رأي لا يشاطرهم فيه بالكلية بقية الرباطاب ! لا اعتقد اطلاقا أنهم رباطاب، وكل شيء يشير إلى أنهم شكلوا حضورا متأخرا للمنطقة. إنهم يقطنون في غالبهم حول منطقة أبو حمد، في عمودية مقرات، مع إن بعضهم يتواجدون خارج منطقة الرباطاب مباشرة، في ارتولي من مقاطعة بربر، وفي الزيداب من مقاطعة شندي.

تنقسم الفروع السبعة عشر إلى مجموعتين. المجموعة التي تنحدر من فرنيب ابن ابن حفيد رباط الأكبر، يسمون أنفسهم الفرانيب، والذين ينتمون للفروع الأخرى يسمون أنفسهم بالرباطاب، أصحاب الاسم. وفي حقيقة الأمر كلهم رباطاب أصحاب الاسم، والفرانيب مجرد قسم منفصل من القبيلة الرئيسية. يتكون الفرانيب من أحد عشر فرعا،

العجيباب، والبديراب، والضعيفاب، والمحمداب، والزمارنة، والسعداب، والصلاحاب والعبابيس، والضياباب، والسبابية، والمراقيب. بقية الفروع تشكل "الرباطاب أصحاب الأسم".

الجدول التالي يوضح التسلسل النسبي وتجميع الأقسام الفرعية المختلفة للرباطاب.



وبالرغم من أن الرباطاب يعرفون قليلا أو لا يعرفون شيئا عن تاريخهم المتقدم جدا باستثناء ما هو أسطورة واضحة، ويكتفون بأشجار نسب عائلاتهم الرائعة في نظرهم، فإن تاريخهم الأكثر قربا معروف تماما. تحت دولة الفونج في سناركان هناك مكين في الرباطاب. تم تقسيم المنطقة إلي قسمين: البديراب ويحكمون القسم الشمالي، والذي يمتد من الشامخية جنوبا إلى خور أبوغرة (خط عرض 19° خط طول ´34 °33)، والضعيفاب، أحفاد رحمة ضعيف، يسيطرون على النصف الجنوبي، من خور أبو غرة جنوبا إلى السنقير.

في حوالي العام 1819م، قبل سنتين من قدوم اسماعيل باشا لاحتلال السودان، تقدم فرع العجيباب الصفوف قي شخص أبو حجل، وهو رجل يتمتع بشخصية مرموقة قام بإخضاع كامل القسم الجنوبي من المنطقة، وختم له باعتماده " عقيدا" أو قائدا عاما لقوات الرباطاب كلها. قدراته الإدارية وشجاعته الشخصية أثارت إعجاب الأتراك مما دفعهم لاعتباره زعيما لكامل منطقة الرباطاب.

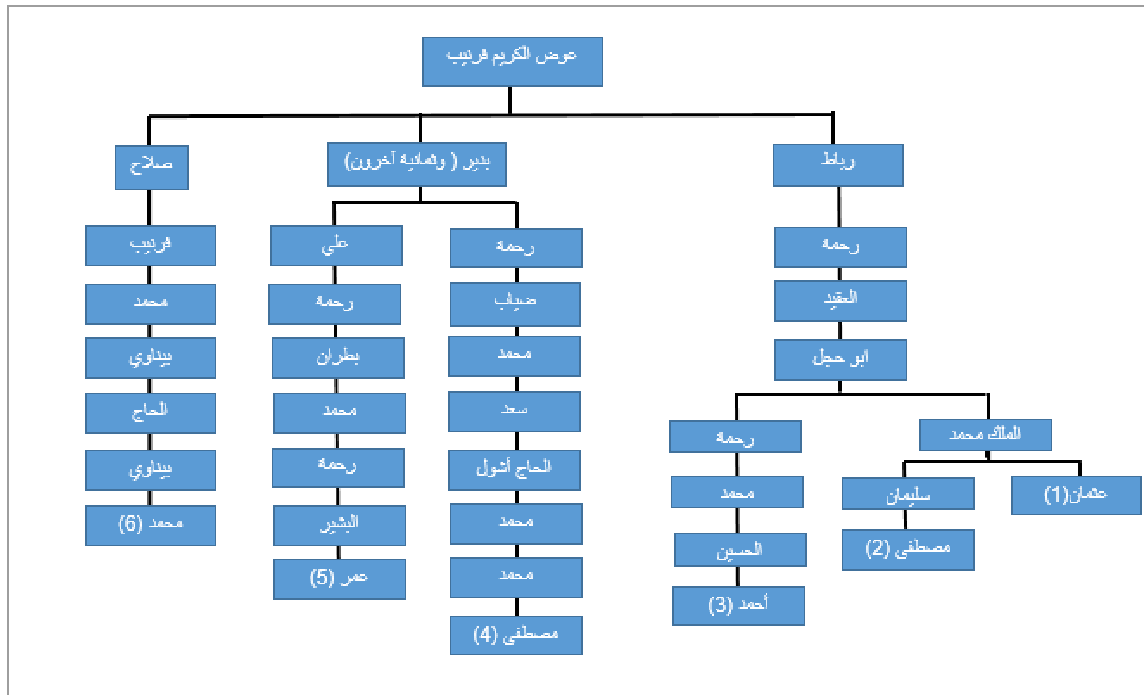
خلال فترة التركية والمهدية تم تقسيم منطقة المكين إلى ثلاثة حيث ظهرت للوجود خطوط الباقير، وابوهشيم، ومقرات. تم تعيين محمد عوض الله (الضعيفاب) "حاكم خط الباقير" ويمتد حكمه من شمال السنقير إلى الترعة، وأصبح سليمان أبو حجل (العجيباب)

"حاكم خط أبوهشيم" حيث امتد إقليمه من شمال الترعة إلى عتمور، وكان بشير رحمة (البديراب) "حاكم خط مقرات"، مسيطرا على المنطقة من كرقس إلى الشامخية، الحد الشمالي للرباطاب.

تحت ظل الحكومة الحالية تم تعيين ثلاثة عمد كما في أعلاه، وهؤلاء الثلاثة أصبحوا بعد فترة وجيزة لاحقة سبعة، كما هو الحال في يومنا هذا.

اعتبر العجيباب زمن التركية والمهدية الفرع الحاكم من الرباطاب. على أنه في ظل الحكومة الحالية فإن سلطتهم ونفوذهم اضمحلا نوعا ما مقارنة بفرع البديراب. وكان هذا عائدا لعدة أسباب: قد يعزى ذلك أولا للشخصية المقتدرة لزعيم البديراب الحالي شيخ عمر البشير، وثانيا لحقيقة أنه بما أن مركز أبوحمد يقع في أراضي البديراب بعيدا عن منطقة العجيباب، فإن فرع البديراب كان أكثر وقوعا تحت دائرة الضوء.

نعرض هنا الجدول التالي الذي يوضح تسلسل العمد الحاليين في الرباطاب مما قد يكون له أهمية.



(1) عمدة الباقير العجيباب
(2) عمدة الكدق العجيباب
(3) عمدة أبو هشيم العجيباب
(4) عمدة الزويرة البديراب
(5) عمدة مقرات البديراب
(6) عمدة عتمور الصلاحاب

منطقة الرباطاب تمثل الحد الجنوبي للزراعة الجادة للنخيل. هناك ما يزيد عن مائة وستة وسبعين الف نخلة خاضعة للضريبة في المنطقة، ويعتمد عليها الناس بصورة كبيرة في أرزاقهم. الأرض الصالحة للزراعة شحيحة وفقيرة، ولا تنتج أكثر من محصول جيد واحد في السنة إلا بصعوبة. وهناك ندرة في العلف والمراعي للحيوانات، وهناك مشقة أخرى تتمثل في أنه بخلاف جيرانه الذين يبعدون أكثر جنوبا على النهر، فإن الرباطابي لا يملك إطلاقا أي أراضي للزراعة بالسلوكة، وكل ما يزرعه يجب أن يكد في سقايته بعجلة الساقية. ومما يجعل الأمور أكثر مشقة لمزارع الساقية، أنه في أحيان كثيرة، وبالذات في المنطقة المجاورة لابي حمد، توجد طبقات فرعية صخرية صلبة تنحدر تحت أرض الساقية تتطلب أعمال قطع ونحت في الصخر لعمل بئر للمياه.

إن المنطقة قد تم تفريغها بصورة كبيرة جدا من السكان وذلك بسبب عدم خصوبة الأراضي التي، منذ انعدام العمل المسترق، دفعت أعدادا كبيرة من الرجال صغار السن أبعد إلى الجنوب بحثا عن عمل مجزأكثر.

عند الركوب على طول الضفة الغربية، يمكن للمرء أن يرى آثارا لمساحات كبيرة من الأراضي كانت مزروعة في يوم من الأيام، ولكن يجب أن تظل بورا في الوقت الحاضر بسبب نقص العمالة. يجب علي القول أنه في الماضي غير البعيد كان الشريط المزروع الضيق من الضفة الغربية، في المتوسط، حوالي نصف عرضه مرة أخرى كما هو عليه الآن.